الفصل السادس

بين الإمام محمد عبده والدكتور محمد البهى..

لكل إقليم من أقاليم مصرنا المحروسة شخصية متميزة، ونشاط ملحوظ فى مجال معين من مجالات النشاط الإنسانى. فإذ كان أهل دمياط مشهورين بالعقل الرياضى والعلاقات الهندسية والكمية، تلك الصفات التى تؤهل ذويها للاهتمام بدقائق الأمور فضلا عن عظائمها، فلذلك نجد منهم العلماء المبرزين والصناع المهرة، والتجار الناجحين، وبالأمس القريب أقيم احتفال مهيب لكونها أولى محافظات مصر قضاء على الأمية البغيضة. كما تمثلت شهرة المنوفية – إذا استثنينا المجال الزراعى الذى تشتهر به معظم محافظات مصر – بنهضة تعليمية يُعزى معظمها إلى نشاط جمعية المساعى المشكورة فى أرجاء هذه المحافظة لمعاهدة. أما محافظة البحيرة فإنها تتبوأ مكانها ضمن الصف الأول بين المحافظات، التى تتميز بتَوجُهها الدينى، فهى تشتهر بالكثيرين من علماء الدين الأعلام، الذين سهموا مع غيرهم فى رفع لواء الإصلاح والجهاد فى كل المجالات، بدءا من السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، الذى تلقى تعليمه بالأزهر الشريف، فشب على الغيرة على الدين والوطن، لا يخشى فى ذلك أذى أو نفيا، سواء من غاصب محتل كنابليون بونابرت، أو حاكم متسلط كمحمد على.

وقد نبت فى أرض هذه المحافظة الزكية أيضا كل من الشيخ سليم البشرى والشيخ محمود شلتوت، وكل منهما كان شيخا للأزهر الشريف، ومنها أيضا العالم الفقيه الدكتور محمد محمد المدنى، والأستاذ الدكتور محمد عبده ماضى، والشيخ عبد الله المشد، والدكتور محمود حب الله المدير الأسبق للمركز الإسلامى فى أمريكا، وامتدادا لهذه السلسلة الذهبية هناك أيضا المرحوم الشيخ عبد العزيز عيسى والداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى رحمه الله وأجزل له العطاء.

فى هذه الأرض الطيبة من ربوع مصر الغالية، وفى هذا العبق الروحانى والمناخ الفطرى، الذى يبعث على حب الدين وتبجيله، وانتهاج صراطه المستقيم، ومنهاجه القويم، نشأ كل من الإمام الراحل الشيخ محمد عبده – طيّب الله ثراه – والأستاذ الجليل الدكتور محمد البهى – رحمه الله – على تباعد نشأة كل منهما حيث ينتميان إلى جيلين مختلفين تماما، إذ توفى الأستاذ الإمام فى العام نفسه الذى ولد فيه الدكتور البهى، وعلى ذلك ففى العام (٢٠٠٥) مرَّ قرن من الزمان على وفاة الإمام محمد عبده وقرن على ميلاد الدكتور محمد البهى. هذا ولا تنحصر أوجه الشبه والعلائق بين «المحمدين»: الإمام الشيخ والأستاذ الدكتور، فيما ذكرناه وحسب، ولكنها تعدت ذلك إلى أمور أخرى، أرجو أن تسمح المساحة المتاحة بعرض بعض منها. فكل منهما قد حفظ القرآن فى حداثة سنه، وكل منهما تلقى تعليمه بالأزهر الشريف، وكل منهما اشتغل عقب

تخرجه بالتدريس. وكل منهما اضطلع بالعمل العام وأبلى فيه بلاء حسنا. كما اهتما بأمور الأزهر. وعملا على إصلاحه، على اختلاف دور كل منهما فى هذا الإصلاح. فالأول ساهم بالنظر والفكر وعمل مفتيا للديار المصرية. أما الثانى فإلى جانب الفكر قد أتيحت له فرصة التنفيذ حينما كان أول من تولى إدارة جامعة الأزهر إبان تطويرها. وقد تدعّم هذا الدور أيضا بتوليه عقب ذلك وزارة الأوقاف وشئون الأزهر فى أوائل الستينيات من القرن الماضى.

ولكل منهما آثاره الفكرية واجتهاداته الذهبية وإنتاجه الأدبى والثقافى، فى مجال الفكر الإسلامى. فمن آثار الشيخ محمد عبده ما يلى:

- رسالة التوحيد.
- دروس من القرآن الكريم.
- دين الهداية والإصلاح.
- شرح نهج البلاغة.

- ولم ينس أستاذه وزميل كفاحه جمال الدين الأفغانى، فألف عنه رسالة موجزة، أُعيد نشرها فى سلسلة كتاب الهلال. كما ساهم فى مناقشة آراء بعض المفكرين المغرضين من أئمة التبشير من الغربيين مثل «رينان» و «هانوتو» وغيرهما، كما كان على صلة ببعض المعتدلين منهم، من أمثال «تولستوى»، الذى تبادل معه الرسائل المكتوبة.

ومن آثار الدكتور البهى ما يلى:

- الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى، وقد توالت طبعاته عدة مرات منذ ظهور الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٤٥. وقد ظهرت طبعته الرابعة التى بين أيدينا الآن عام ١٩٦٧.

- الدين والدولة: من توجيهات القرآن الكريم.

- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى.

- الإسلام فى حياة المسلم.

- الدين والحضارة.

- نحو.. القرآن.

- العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق.

والمتفحص لعناوين آثار كل منهما يرى - على وجه التقريب - أن كل مُؤَلَّف لأى منهما له ما يناظره عند الأخر؛ وعلى سبيل المثال فإن «رسالة التوحيد» يقابلها «الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى» وكتاب «دروس من القرآن الكريم» يقابله «نحو القرآن». وكتاب «دين الهداية والإصلاح» يقابله كتابا «الدين والحضارة» و «الإسلام فى حياة المسلم»... وهكذا.

وثمة وجه آخر للشبه يتمثل فى جانبين هامين فى الرجلين كليهما. أما الأول فيتمثل فى توجه كل منهما ومناداته بإصلاح الأزهر والتعليم بوجه عام، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع أى منهما أو كليهما

إن كان ثمة اختلاف، وعلى كل حال فللمجتهد فى الإسلام أجران إن هو أصاب، ولن يحرم الأجر إن هو لم يُصِب الهدف. أما الجانب الثانى فيتمثل فى أن كلا منهما لم ينفصل عن قضايا عصره، بل تعرّف عليها، ودرسها جيدا، ثم ناقش ما جاء فيها من آراء، وواجه أصحابها ليس بآراء شفهية، قد تذهب أدراج الرياح، ولكن بكتابات موثّقة تُطبع الحين بعد الحين، فى طبعات متكررة، ليستفيد من منهجها وآرائها الأجيال المتعاقبة.

أما قطب الرحى فى صنيع كل منهما، فقد تمثل فى تفسير القرآن الكريم فقد ترك لنا الأستاذ الإمام «تفسير المنار» الذى بذل فى جمعه وترتيبه وإظهاره للنور تلميذه ومريده الشيخ رشيد رضا – أجزل الله له العطاء – أما أستاذنا الدكتور محمد البهى فقد ترك لنا «التفسير الموضوعى للقرآن الكريم»، وهو بحق عمل رائد فى عصرنا الحديث، سبق به الكثيرين فى هذا المجال.

والذى لا نشك فيه بعد كل ما قدمناه، أن الدكتور البهى كان مُعجبا بل مبهورا بشخصية الأستاذ الإمام، ومن ثم فقد اتخذه قدوة ومثلا، وتأكّد ذلك – على نحو ما سنبين لاحقا – بعد أن درس فكره دراسة منهجية، فى جامعة مرموقة من جامعات الغرب.

أما بركة الشيخ الإمام محمد عبده، فقد أدركت أستاذنا الدكتور البهى؛ إذ كان الأول سببا غير مباشر، لأن يسير الثانى سيرته

التى سارها، وطريقه الذى انتهجه، سواء من باب القدوة أو بسبب بعض الإجراءات، التى كان وراءها اسم الشيخ محمد عبده، على الرغم من أن ذلك قد تم بعد وفاة الإمام بفترة كبيرة. ويتلخص هذا فى أن أهل الفضل والخير، من العارفين بمكانة الأستاذ الإمام، أرادوا أن يكرّموه بعد رحيله بإقامة تمثال له فى عاصمة المحافظة، إلا أنهم عَدَلوا عن هذه الفكرة فى اللحظة الأخيرة؛ وذلك لعلمهم بأن ذلك مما يتنافى مع مبادئه، التى عاش ومات من أجلها، ومن ثمّ فقد استبدلوا بذلك خيارا آخر، تمثّل فى اختيار رجلين نابهين من أبناء المحافظة وأرسلوهما فى بعثة إلى أوربا، ليضيفا إلى عِلم الشرق، عِلم الغرب ومناهجه الحديثة، فى البحث والدرس، فيمزجا بين الدين والمدنية، فكانت إحدى هاتين البعثتين من نصيب المرحوم الدكتور البهى.. وهكذا ارتبط مصير الدكتور البهى، بصورة أو بأخرى. بالشيخ محمد عبده. أما الارتباط الثانى والأعمق، والذى جاء باختيار الدكتور البهى، فكان عندما اختار طالب الدراسات العليا، محمد البهى، الفكر التربوى للشيخ محمد عبده، لكى يسجل حوله رسالته للدكتوراه فى جامعة هامبورج بألمانيا، وذلك تحت عنوان: «محمد عبده: دراسة لمنهجه التربوى من أجل الوعى الوطنى ونهضة الأمة»، ولم يكن ذلك إلا عن حب وتقدير للأستاذ الإمام، وإعجاب بمنهجه الإصلاحى؛ ولذلك فلم يكن غريبا أن يحتفظ الدكتور البهى، فى غرفة مكتبه،

بمنزله – كما يقول الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق – بصورة كبيرة للأستاذ الإمام محمد عبده.

أما مسوّغاته الأكاديمية فى اختياره لهذا الموضوع، فقد بلورها الدكتور البهى فى كون الدارسين الذين سبقوه قد اهتموا فى دراساتهم بتناول جزئيات من رسالة محمد عبده ومواقفه. إلا أن واحدة منها لم تحاول الاهتمام باستعراض الصلة الوثيقة التى تربط تصوراته النظرية وأثارها العملية فى الواقع. ثم يُرْدِفُ قائلا: ولم يبحث أحد حتى الآن (حتى وقت إعداد الرسالة) ما أهداف محمد عبده ؟ وما وسائل اجتهادات رؤيته للحياة وللعقيدة ؟ ثم يقول: وعلى الرغم من أن محمد عبده لم يلخّص تصوراته تلك فى كتاب واحد. بل إنه كتب مقالات متفرقة، وتناول بالبحث موضوعات جمة. إلا إنها جميعا كانت ذات هدف محدد وتصب فى مسار واحد فى نهاية الأمر. ومن ثم فقد حاول الدكتور– فى رسالته– أن يجيب عن هذه الأسئلة مجتمعة، ليضع لنا صورة مجملة عن غايات الأستاذ الإمام ووسائله فى تحقيق هذه الغايات. وفْق المنهج العلمى الحديث. ومن ثم فقد جاء عنوان رسالته عن الإمام على نحو يبلور هذه الرؤية الشاملة، والتصور العام لفكر الرجل. بشكل يجمع كل شىء يتعلق به. وكل النقاط التى اهتم بها.

ويرى الدكتور البهى أن الأستاذ الإمام قد اهتم بمجالات متعددة، منها على سبيل المثال: اهتمامه بالدين والأخلاق والفلسفة والعلوم

السياسية، إلى غير ذلك من اهتمامات، يرتبط بعضها - بصورة أو بأخرى - ببعض، والجدير بالذكر أن المتصفح لآثار الدكتور البهى يرى أنها ذاتها الاهتمامات الرئيسية للأستاذ الإمام، عبر مسيرته الفكرية والعلمية، ومن ثم كان التشابه الكبير بين آثار الرجلين - كما قدّمنا - على اختلاف التناول والجزئيات التى تعبر عن نبض الزمن الذى عاش فيه كل منهما.

□□□